

بسم الله الرحمن الرحيم

الوعي بالهوية وإعادة بنائها

من منظور وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

سعادة الدكتور غيث مبارك الكواري

وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

دولة قطر

أكدنا في ورقة سابقة بعنوان "كلمات حول الهوية" على أن الحديث عن الهوية القطرية ينطلق بالأساس من التأكيد على ركائزها، وحصرتنا تلك الركائز في "اللغة والدين والوطن"، وأشرنا إلى أن الدين الإسلامي بمقاصده الشريفة يؤمن لنا اللقاء مع دوائر عريضة من سكان المعمور، وقدما أن في ديننا ثوابت لا مجال إلى تجاوزها ومتغيرات يمكن تطويعها بحسب الزمان والنوازل حتى نتمكن من أن نعي ثقافة عصرنا ونستوعب كل الأشكال الحية من التقدم والحضارة دون تفريط في الأصول. كما أكدنا على ضرورة مراعاة مقاصد الشريعة الغراء والوعي بفقہ المصالح والمفاسد، وسلوك طريق الوسطية والاعتدال في النظر إلى الأمور الدينية وغيرها. وكل ذلك مع اعتبار أهمية اللغة العربية في حفظ الهوية وأنها ملازمة له إذ بها نزل القرآن الكريم. ونبهنا إلى أن الهوية تواجه تحديات داخلية وخارجية سيما وأنا نعيش في عالم مفتوح تطورت فيه وسائل الاتصال وتعددت فيه أشكال التواصل. وفي خضم كل ذلك قدما بعضا مما تصان به هذه الهوية محط السؤال.

وقد رأينا في الورقة التالية الوقوف عند نقطتين لهما أهمية خاصة مع تقديم وجهة نظر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية منهما. يتعلق الأمر بالوعي بالهوية، وإعادة بنائها.

إن الهوية بما أنها "وعاء الضمير الجمعي لأي تكتل بشري ومحتوى هذا الضمير في نفس الآن بما يتضمنه من قيم ومقومات تكيف ووعي الجماعة وإرادتها في الوجود والحياة داخل نطاق الحفاظ على الكيان بكل ما يبرر ظهوره واستمراره" تكتسي طابع الفعل، فهي بطبيعتها فاعلة، والوعي بها ضروري لتحقيقها. وكما هي تتأسس على ركائز - أتينا على ذكرها في الورقة المشار إليها أعلاه - هي قابلة للتجدد كما سيأتي.

وفاعلية الهوية تتأسس على الوعي بها، ونحن حين نتحدث عن هوية قطرية، نتصورها مقترنة بالفئة الواعية لها. إن وجود "هوية قطرية" ملازم لوجود "قطريين"، وبدونهم - وهم الواعون لحدودها والمتوافقون على ركائزها- لا يمكن تصورها البتة. كما أن فعل هذه الهوية في الفئة الواعية لها يتحقق بقدر درجة الوعي تلك.

إن المجتمع القطري مجتمع كما كل مجتمع بشري، بنى آليات تفكير خاصة به، على منطق خاص كذلك، وهو منطق يجعله يغير أحيانا حتى المجتمعات القريبة منه تمام المغايرة، ويتطابق معها في أحيان أخرى تمام التطابق. وآليات التفكير تلك، هي التي تجعل القطري يطرب للون معين من

الإنشاد، ويتذوق نسقا معيناً من الشعر، ويضحك لأسلوب معين من الكلام، ويردد أنساقاً معينة من الأمثال، ويطمئن لطريقة خاصة من اللباس...

ونفس الآليات في التفكير تحكم نظرتهم إلى التدين والتمذهب، وتحكم رؤيته للعالم، وتجعله يعقل أنماطاً خاصة من العلاقات البينية وحدوداً مرسومة من أشكال التكافل والتعاون والوئام، وتجعله يأنس لنظام خاص من الحكم. وتلك الآليات نفسها هي تلك التي تحفظ له قدراً من التميز في عالم ينحو إلى تكريس النسخة الواحدة المكرورة من القيم.

وبالجملة، إن تلك الآليات التفكيرية، هي اللاحمة الأساسية التي تجعل المجتمع القطري جماعة لها ما يميزها عن "الآخر" وفق قانون التنوع المقرر في الآية 22 من سورة الروم: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ"، ولها ما يجعلها تتعارف مع الجماعات الأخرى وفق ما هو مقرر في الآية الكريمة "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (سورة الحجرات، الآية 13). ونفسها الآليات التفكيرية التي تجعله جماعة قادرة على تدبير الاختلاف فتحتكم حين التنازع إلى الله ورسوله وتأخذ برأي ولي الأمر وتستتير برأي أهل العلم وفق الآية الكريمة: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا" (النساء: 59).

وقد تحقق وعي القطريين بهويتهم عبر مراحل طويلة من التاريخ، وتدل الآثار على وجود قطري في غابر الدهور، ولما كان موقع قطر موقعا استراتيجيا على ممر بحري حيوي في التاريخ القديم فقد أسعف أهله في لقاء شعوب عديدة لها لغاتها وثقافاتها الخاصة، لكن اللقاء الحاسم كان حين ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم على البحرين وعليها العلاء بن الحضرمي؛ ومع دخول ساكنة قطر الإسلام تحقق للقطريين مكونان ضروريان لتشكيل الهوية "الدين واللغة الموحدة" وقد انضافا إلى "الوطن"، وأضحت لقطر هوية قطرية خاصة في إطار محلي، وهوية إقليمية في إطار لاحمة "الإسلام": "العالم الإسلامي" وهوية كونية في إطار لاحمة "الإنسانية": كوكب الأرض. مع الإشارة إلى أن في هوية قطر الخاصة نقاط ائتلاف مع الدائرتين الأخريين. وطبقا لذلك تحددت علاقة القطريين فيما بينهم، لقد تلاحموا لدرء المخاطر وصد الهجومات الخارجية، وتكاتفوا في أوقات الشدة والرخاء، واجتمعوا على فكرة بناء الدولة الحديثة وعقدوا لواءها في إطار الإمامة الشرعية لمن آنسوا فيه تحقق شروط الإمام، واجتمعوا على دستور دائم للدولة. بقي أن نشير إلى أن الوعي بالهوية يجعل منها موضوعا قابلا للطرح بشكل مستمر، فكلما انفتحت الجماعة الحاملة لهوية ما على عوالم جديدة أو طراً أدنى تعارض بين أفرادها، أو بينهم وبين ذوات مغايرة، أعاد إلى الواجهة سؤالها، فسؤال الهوية مقرون بكل محاولة للمراجعة. ومهما كان موضوع المراجعة، يُنطلق من الهوية لاستيعاب الحي من الواقد من الأفكار والقيم، ويُستند إليها في تطوير انتشار الميث من الأفكار والقيم والممارسات أيضا.

وتتم المراجعة استنادا إلى الركائز الأساسية للهوية "الدين، واللغة والوطن" وما ارتبط بهذه الركائز من الأفكار والقيم وآليات التفكير، ويكون الغرض من المراجعة في الغالب الأعم إقرار التوافق داخل المجتمع وتدبير ما قد ينشأ من اختلاف.

وعلى هذا، فإن الوعي بالهوية ملازم لتطور المجتمع، كما أن درجة هذا الوعي حاسمة في تحقيق تجده وإصلاحه ونموه واستقراره، وهي تحدد أكثر من ذلك فعله في التاريخ. والوعي بالهوية بهذا المستوى يحمل في طياته رغبة في إعادة بنائها وفقا للشروط المستجدة دونما أدنى تقريط في الثوابت التي ارتكزت عليها؛ وكما في الدين ثابت ومتغير حسب ما فصلنا في الورقة السالفة، فإن في اللغة ثابت ومتغير؛ فهي ثابتة القواعد إذ للفعل فيها أوزان وصيغ، وإذ الفاعل والمفعول خاضعين فيها لنظرية العامل وبموجبه يقع رفع الأول ونصب الثاني... إلخ، فإن للغة آليات أخرى تجعلها تتجدد لتستوعب أفكارا جديدة، وهي على هذا كائن متجدد له ثوابته وله شروط وكيفية تطوره. وكذلك الوطن، فحدوده مصانة تتوافق كل الجماعة عليها، لا يمكنها التقريط في شبر منها، لكن الوطن منفتح على العصر وهو قابل للتطور داخل حدوده بسواعد أبنائه الذين يحولون صحاريه القاحلة إلى جنان غناء؛ إنه في حدوده التي عاش فيها الأجداد لكنه تطور ونما فأضحى شاهدا على جهود الخلف. فالهوية في أفق التجدد قابلة لأن يُعاد بناؤها لتستوعب العصر، ولتجعل الجماعة الواعية لها مواكبة لركب الحضارة الإنسانية.

على أن للتجدد صيغتين، صيغة ذاتية أوجبتها ضرورة تأسست داخل المجتمع وأفضت إليها صيرورة خاصة في التطور، وصيغة طارئة تتحقق بفعل التفاعل مع العالم الخارجي. وبعبارة أخرى فإن تجدد الهوية تتجاذبه ثنائية المحلي والعالمية. والحق أن المجتمعات التي لم تحسم موقفها من قضايا حساسة تطال تحديد الانتماء، وحقوق الأفراد، وحق الجماعة، ونمط الحكم، وتوزيع الثروات، ومخطط التنمية، والعلاقات مع الغير في نطاق إقليمي وكوني، ظلت تعيش اضطرابات متنوعة.

ووحدها المجتمعات التي حققت وعيا بهويتها المحلية استطاعت أن تتخطى مزالق التصادم وأخطار الانصهار في أنماط من النُظم نشأت في إطار عولمي من القيم المستنسخة فرضها الغالب على المغلوب والمنتج على المستهلك.

ولعل في رفع شعارات الحق في الاختلاف الفكري والتنوع الحضاري والثقافي، ودعوات ضرورة التعايش والتسامح، وغير ذلك ما يحيل على وجود جهود تصحيحية تهدف إلى تبويئ الهويات المحلية دورا أساسيا في تنمية مجتمعاتها ودورا أثناء بناء قيم كونية تحقق استمرار النوع البشري وتجنب الأرض أخطار الدمار بما صنعت أيدي الناس.

إن المجتمع القطري مجتمع حي، وعى هويته وعبر عنها في استفتاء يوم التاسع والعشرين من أبريل 2003 حين صوت على دستور دائم للدولة جعل أهدافه الأساسية " بناء دولة مزدهرة ومستقرة قوامها الدين والأخلاق،

وعمادها العلم والمعرفة وأساس حكمها العدل والدستور". لقد لخصت هذه الأهداف خطة كاملة لتطوير البلد وتنميته، عبرت على درجة عالية لوعي الهوية، وجعلت سؤال الهوية مطروحا بين مكونات المجتمع القطري في أفق مراجعة مستمرة، فبناء نظام تعليمي ناجح وبناء نظام قانوني يستجيب لكل المستجدات وبناء اقتصاد مزدهر...أوراش مفتوحة أمام التطوير والنقاش حولها بالاستناد إلى ركائز الهوية أمر حيوي في مجتمع حي.

ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر بحكم ارتباطها بالمجتمع وحراستها للثوابت معنية بسؤال الهوية القطرية، ومعنية برفع درجة وعي القطريين بها، ومعنية بتفعيلها وإعادة بنائها والإسهام في رفع ما قد يواجهها من تحديات.

وهي في هذا التوجه تعمل وفق محاور ثلاثة:

أولاً: الأمن الديني

ثانياً: الأمن الثقافي

ثالثاً: الأمن الاجتماعي

ففيما يتعلق بالأمن الديني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية على وعي تام بالتحولات التي طرأت على المسألة الدينية في العالم، إنها تعي أن هناك عودة إلى التدين بعد أن واجهت الإنسان في العالم أسئلة من قبيل إلى

أين؟ وكيف؟ وما دورنا في العالم؟، وهي أسئلة لا يمكن أن توجد لها أجوبة شافية خارج "الدين" خزان القيم الخالد.

وهذه العودة إلى التدين، وبفعل الاضطرابات الحاصلة في تصور مقياس للقيم نظرا لفقدان الإنسان سلطة القرار أمام غلبة المادة وسطوة النتائج التقني وخضوع الإنسان لما صنعت يدها، أضحت عودة متشنجة، حادت به إلى دائرة الغلو والتطرف. وبفعل الأزمات التي طرأت على المجتمعات الإنسانية والتي كان مبعثها في الغالب الأعم صراعات حول مصالح مادية ومنافع اقتصادية، تولد فكر تصادم وصراع أفضى إلى أنواع من الغلو تدهرت بدثار مجابهة الآخر المغاير في الدين واستئصاله. وقد جر هذا التصور على العالم ويلات نشبت جراءها حروب طاحنة أودت بآلاف الأبرياء.

ولما كان المجتمع القطري مجتمعا منفتحا على العالم كما كل مجتمع عصري، فإن أخبار وآثار ونتائج التطرف وصله أولا بأول، ولا يمكن تصور خلو المجتمع القطري من أفراد تأثروا بطروحات ذلك الفكر المتطرف أو أبدوا بعض التعاطف معه. من هنا كان على وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في إطار حماية الهوية القطرية أن تفكر في تحقيق أمن ديني يعمل على إشاعة فكر الوسطية والاعتدال مع العمل على أن لا تتحول هذه الوسطية وهذا الاعتدال إلى لافتة تتحول مع الأيام إلى فكر مصادر لأفكار الآخر أو بعبارة أوضح الحرص على أن لا يتطرف الاعتدال ولا تغلو الوسطية.

وقد رسمت الوزارة خطة تحصينية تمنيعية تجعل المسجد مدرسة مفتوحة لترسيخ قيم التراحم والتعارف والتواد والتسامح في ظل ولي الأمر، وشجعت إداراتها على مراجعة خططها (إصلاح معهد الدعوة)، كما برمجت أنشطة مكثفة للتوعية الدينية بشتى الوسائل المتاحة (الإذاعة، التلفزيون، النشرات، البوابات الإلكترونية، الزيارات الميدانية للمؤسسات التعليمية، حملات التوعية والتعريف بالإسلام....).

وإذا كنا على يقين من نجاعة خطتنا في التمنيع الديني بشكل يجعلها فريدة في العالم الإسلامي، فإننا نسعى إلى تطويرها متيقنين أن لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية دورا يتقاطع مع العديد من القطاعات وفي مقدمتها قطاع التعليم.

وتسعى الوزارة إلى تحقيق أمن ثقافي، فلما كان الدين والأخلاق قوام الدولة المستقرة المزدهرة، ركزت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية على تنمية الثقافة الإسلامية بين جميع فئات المجتمع القطري، وقد انتشرت عبر ربوع البلد دور للقرآن ومراكز لتحفيظ القرآن الكريم والتعريف بعلمه سواء بمبادرة من جمعيات أهلية أو بإشراف مباشر من الوزارة، كما تعددت مسابقات الحفظ والتجويد والدورات التكوينية خلال السنة.

ولما كان بلدنا قد انفتح بفعل الضرورة على عمالة وافدة من غير العالم العربي، فقد طورت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية برنامجا لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها (تجربة فنار) وأعدت منهاجا متكاملًا، وهو برنامج

قابل للتطبيق على صعيد واسع في إطار برنامج لمحو الأمية وتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها من الجاليات العاملة في قطر.

ولنا أن نسجل في هذا الصدد أننا نعمل على تطوير و تفعيل تعليم العربية للجاليات غير الناطقة بالعربية المقيمة في بلدنا على اعتبار أن اللغة وعاء الفكر، وعدم تواصل تلك الجاليات مع المكون الأساسي للمجتمع القطري باللغة العربية يجعلها تتغلق على نفسها في تجمعات مغلقة وقد يستغل الميالون إلى التطرف تلك التجمعات في إشاعة أفكارهم، كما أن التواصل مع تلك الجاليات بلغة ثانية وسيطة (الإنجليزية مثلا) تواصل يبطن قصورا واضحا ولن يفيد في نقل قيمنا الأصيلة إليها.

وستعمل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في إطار مشروع الخطيب القطري على تكوين خاص للخطباء الذين يتوجهون إلى هذه الجاليات بلغاتها في إطار دروس الوعظ والإرشاد والتوجيه، مع الاستفادة من تجربة مركز فنار وتطويرها.

وفي نفس وجهة تحقيق أمن ثقافي تعمل وزارة الأوقاف على تطوير شراكة مع وزارة الثقافة في قطر ترفع مستوى التنسيق بينها إلى درجة يحقق أهدافا في أمد قريب.

وفي إطار الأمن الاجتماعي تعمل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية على تحقيق سلم اجتماعي مبني على قيم التسامح الإسلامية تقوم فيه الجماعة

المؤمنة على تطويق الاختلاف فور حدوثه برده إلى الله والرسول وإلى ولي الأمر.

إن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تحرص على استثمار وتفعيل القيم السامية للإسلام في التشجيع على العطاء وخدمة الوطن والتشجيع على الإبداع والإنتاج والتفوق فيهما، وتسعى إلى التنبيه إلى المخاطر والمفاسد التي قد تطال الفرد والمجتمع جراء التعاطي للمحرمات والعمل بالأفكار الميتة الوافدة رغما على المجتمع. وفي نفس إطار الأمن الاجتماعي طورت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية خطتها في المحافظة على الأوقاف وتتميتها لما لهذا القطاع الحيوي من أهمية دينية واجتماعية واقتصادية وثقافية، كما طورت نظاما للحفاظ على أموال القاصرين بقصد تتميتها حرصا على حقوق هذه الفئة وتحقيقا لمبدأ التكافل، كما تعمل على تطوير خطة لإدارة أموال الزكاة وكلها فئات مرتبطة مباشرة بالمجتمع وبأمنه. وكل هذه الجهود وفق خطة الحكومة التي يراها ولي الأمر.

وفقنا الله لما يحبه ويرضاه، وهدانا إلى الصواب، (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)